تجاهل العارف في القرآن الكريم: استعمالاته وأغراضه البلاغية

الدكتور شاكر العامري *

الدكتور محمود خورسندي **

سمية ترحمي***

الملخّص

إذا كان أسلوب الاستفهام لطلب فهم أمر لا علم لنا به فالاستفهام حقيقي. ولكن كثيراً ما يأتي الاستفهام من أجل أغراض أخرى تسمّى بالأغراض الفرعية تفريقاً لها عن الغرض الأصلي منه، وتسمّى تلك الأغراض الفرعية بتجاهل العارف وهو مبحث من مباحث البلاغة المثيرة للجدل، حيث وضعه بعضهم في علم المعاني ووضعه آخرون ضمن علم البديع. إنّ أقصى سعينا في هذا البحث هو أن نبيّن الأغراض المختلفة لتجاهل العارف في القرآن الكريم وأن نأتي بشاهد واحد لكلّ منها على الأقلّ.

الأسئلة في القرآن قسمان: القسم الأول أسئلة جاءت على لسان الله تعالى والقسم الثاني أسئلة جاءت على لسان غيره وبما أنّ الله تعالى عالم بجميع أمور الوجود وليس هناك سؤال يُطرح من قبله من أجل طلب العلم أو الفهم قطعاً، فإنّ كافة الأسئلة الإلهية تصبّ في مقولة تجاهل العارف. وعليه فإن الأسئلة التي تمت دراستها في هذا البحث هي الأسئلة التي تمّ طرحها من قبل الله تعالى لتُعلم أغراضها الفرعية ولتكون عوناً للمخاطبين في السير على الصراط المستقيم.

كلمات مفتاحية: القرآن، تجاهل العارف، أسلوب الاستفهام، البلاغة، الأغراض الفرعية.

---

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان، إيران.

** أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان، إيران.

*** ماجستيرة في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان، إيران.

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٥/١٠= ٢٠١١/٨/١م تاريخ القبول: ١٣٩٠/٩/٢١ = ٢٠١١/١٢/١٢

المقدمة

البلاغة تعني المجيء بكلام على وجه حسن ومقبول يتطابق مع مقتضى حال السامع، إذ جاء في جواهر البلاغة أنها مطابقة الكلام "لما يقتضيه حال الخطاب مع فصاحة ألفاظه؛ مفردها ومركّبها"[١]. وقبل ابن المعتزّ، كانت البلاغة تشمل قسمين فقط: المعاني والبيان، حيث أضاف إليهما قسم البديع، وقد اعترف هو أنّ تلك التسمية لم تكن من ابتكاراته، بل كانت من المحدثين[٢].

يعرّف علم المعاني في الاصطلاح بأصول وقواعد للكلام تؤدي إلى مطابقته لمقتضى حال ومقام السامع يمكن الإفادة منها في كلّ لغة وهي تبيّن أدب تلك اللغة. وأضاف في الجواهر "بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له"[٣]. ولكنّ البيان هو علم يُعرف به كيفية إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة. قال في الجواهر في تعريفه: هو "أصول وقواعد يُعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض في وضوح الدلالة على نفس المعنى، ولابد من اعتبار المطابقة لمقتضى الحال دائماً"[٤].

والقسم الآخر من أقسام البلاغة هو البديع الذي هو علم يُعنى بالمحسّنات اللفظية والمعنوية للكلام بعد مطابقته لمقتضى حال السامع و دلالته على المعنى المراد من قبل المتكلّم. قال في الجواهر: هو "علم يُعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حُسناً وطلاوة وتكسوه بهاء ورونقاً بعد مطابقته لمقتضى الحال ووضوح دلالته على المراد"[٥]. وإنّ واحداً من المباحث التي تُطرح في علم البديع ضمن المحسّنات المعنوية للكلام هو تجاهل العارف.

---

[١]- أحمد الهاشمي، *جواهر البلاغه في المعاني والبيان والبديع*، ص٤٠.

[٢]- أبو العباس عبدالله ابن المعتزّ، *البديع*، ص١٧.

[٣]- الهاشمي، *جواهر البلاغه في المعاني والبيان والبديع*، ص٤٦.

[٤]- المصدر نفسه، ص٢١٦.

[٥]- المصدر نفسه، ص٢٩٦.

ويرى البعض أنّ إطلاق عنوان تجاهل العارف على الأسئلة القرآنية ليس أمراً مناسباً لأنّهم يعتقدون أنّه تعالى لا يرمي نفسه بالجهل ولو ادّعاءً مع أنّ هذا الرأي لا يبدو صحيحاً بالاستدلال المذكور لأنّ الغرض الأصلي للبلاغيين من ذكر اسم تجاهل العارف هو بيان استعمال هذا الفن في القرآن الكريم. فلو أننا غضضنا النظر عن هذا الفنّ في القرآن ولم نلتفت لأغراضه فإننا نكون قد قصّرنا بشكل كبير. أي أننا لو صرفنا النظر عن هذا الفنّ وشواهده في القرآن بسبب بعض التصورات غير الوجيهة حول معنى ومفهوم تجاهل العارف والاعتقاد بترك إسناده لله تعالى فإننا لن نجد تسمية مناسبة لأكثر الأسئلة القرآنية. علماً أنّ البعض قد سعى إلى استعمال كلمة "إعنات" أو عبارة "سوق المعلوم مساق غيره" بدل لفظ تجاهل العارف، لكنّه لا يحدث فرق في أصل تعريف هذا الفنّ لأنّ أغلب الأسئلة القرآنية قد جاءت على لسانه تعالى، لكنّ أسئلته تعالى، الذي هو عالم الغيب والشهادة، هي أسئلة غير حقيقية، بل هي أسئلة صدرت لأغراض فرعية وليست هي إلاّ تجاهل العارف ولا يوجب تغيير الاسم تغييراً في التعريف الاصطلاحي.

إنّ تحديد وفهم الأغراض الفرعية في هذا المبحث هو أمر مهم جداً وصعب للغاية. كما أنّ الإطار الاستفهامي لتجاهل العارف يترك تأثيراً أكثر على المخاطب وتؤدي الدقة في التأمل فيها إلى تبيّن طريق السعادة والشقاء للإنسان.

تُقسم الأغراض الفرعية للأستفهام القرآني من حيث المتكلم إلى قسمين: ما يتعلق منها بالذات الإلهية المقدسة، وما يتعلق منها بغيره تعالى.

أكثر الأسئلة القرآنية على لسان الباري تعالى وأغلب الأغراض المترتبة عليها عبارة عمّا يلي: التوبيخ، الإنكار، التقرير، النفي، التشويق، العرض، التحضيض، التهويل، التنبيه على الباطل، التنبيه على ضلال الطريق، الأمر، النهي، التعظيم، الاعتبار، التفخيم، التعجّب، الوعيد، الاستبعاد.

أمّا الأغراض التي وردت على ألسنة غير الباري تعالى في إطار جمل استفهامية فهي على ثلاثة أقسام: الأغراض الفرعية لأسئلة الأنبياء، الأغراض الفرعية لأسئلة المؤمنين، والأغراض الفرعية لأسئلة الكافرين. وستتناول في هذا البحث الأسئلة التي صدرت على لسان الباري تعالى فقط.

تجاهل العارف في اللغة والاصطلاح

تجاهل العارف لغة يعني أن يتجاهل العارف جهلاً منفي عنه صفة العلم[١].

وقد أُطلقت على تجاهل العارف، منذ القدم، أسماء مختلفة، حيث يدّعي ابن أبي الإصبع المصري أنّ"هذا الاسم [تجاهل العارف] هو من وضع ابن المعتزّ وسمّاه غيره الإعنات"[٢]. ولكّن السكاكي يرفض عنوان تجاهل العارف بسبب مجيئه في كلام الخالق تعالى ويسميه "سوق المعلوم مساق غيره"[٣]. وعلى كلّ فإنّ هذه الأسماء المختلفة تبحث عن معنى واحد.

أما المعنى الاصطلاحي لتجاهل العارف فقد تمّ بيانه بطرق مختلفة في الكتب البلاغية، وهي رغم ذلك، تدلّ على مفهوم واحد.

فقد عرّفه ابن أبي الإصبع بأنّه "هو سؤال المتكلّم عمّا يعلمه حقيقةً تجاهلاً منه به ليُخرج كلامه مخرج المدح أو الذمّ أو ليدلّ على شدّة التدلّه في الحبّ أو مقصد التعجب أو التقرير أو التوبيخ"[٤].

وقد جاء في"معجم المصطلحات البلاغية"المعنى الاصطلاحي لتجاهل العارف: "ومعنى تجاهل العارف أنّ الشاعر أو الناثر يسأل عن شيء يعرفه سؤال من لا يعرفه ليعلم أنّ شدة المشبّه بالمشبّه به قد أحدثت عنده ذلك وهو كثير في أشعار العرب وخطبهم"[٥].

---

[١]– هوشمند اسفندياربور، *عروسان سخن (عرائس الكلام)*، ص٢٢٢.

[٢]– ابن أبي الإصبع المصري، *بديع القرآن*، ص ١٥٠.

[٣]– يعقوب بن يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، *مفتاح العلوم*، ص ١٣٤.

[٤]– ابن أبي الإصبع المصري، *بديع القرآن*، ص٥.

[٥]– مظفر العلوي أحمد مطلوب، معجم *المصطلحات البلاغيه وتطورها*،ص ٢٥٧.

ويقول أبو هلال في كتابه "الصناعتين": "هو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشكّ فيه ليزيد بذلك تأكيداً"[١].

ويقسّم ابن أبي الإصبع تجاهل العارف إلى قسمين سالب وموجب، فالجمل التي تخلو من حروف النفي موجبة، كقوله تعالى﴿أبشراً منّا واحداً نتبّعُهُ﴾[٢]. ومن أمثلة تجاهل العارف السالبة قوله تعالى:﴿ما هذا بشرٌ إن هذا إلاّ ملكٌ كريمٌ﴾[٣]خطاباً على لسان النسوة[٤].

ونستنتج من الجملة الثانية أنّ تجاهل العارف يمكن العثور عليه في الجمل الخبرية، إضافة إلى الجمل الاستفهامية. وعليه فإننا لو تأمّلنا في المعنى اللفظي لتجاهل العارف فإننا سنرى أنّ هذا المعنى ليس محدوداً بالجمل الاستفهامية، بل إنّ حصر ذلك بالجمل الاستفهامية هو ما درج عليه الماضون.

ولذلك تمّ اعتبار تجاهل العارف من المحسّنات المعنوية لقسم البديع من العلوم البلاغية. ويتفق كافة علماء البلاغة في هذا المجال على أنّه فنّ معنوي وهو أنّ المتكلم يسأل عن أمر معلوم بأسلوب من الشك والتشبيه كأنّه يسأل عن أمر مجهول.

إذن: تجاهل العارف قسمانَ: الجمل الإنشائية والجمل الخبرية. فالجمل الإنشائية غالباً ما تكون استفهامية والجمل الخبرية غالباً ما تأتي منفية.

تجاهل العارف أو الاستفهام ذو الأغراض الفرعية

إنّ أكثر علماء البلاغة يفرّقون بين الأغراض الفرعية للاستفهام وتجاهل العارف عن طريق الفصل بينهما. لكننّا لو تأمّلنا في الأمرين لوجدنا أنّ تجاهل العارف هو الأغراض الفرعية للاستفهام لا يفترقان. ولو رجعنا لتعريف هذين المصطلحين لعلمنا أنّه لا يوجد فرق بينهما.

---

[١]- أبو هلال حسن بن عبد الله بن سهل العسكري، *معيار البلاغة (مقدمة في مباحث علوم البلاغة)*، ص٣٩٦.

[٢]- القمر:٢٤

[٣]- يوسف: ٣١

[٤]- ابن أبي الإصبع المصري، *بديع القرآن*، ص ١٥١.

إنّ تجاهل العارف يعني أنّ طرح السؤال هو لغرض إلقاء نقطة ما على السامع، وتلك النقطة هي الغرض الفرعي للاستفهام. إذن الغرض الفرعي للاستفهام يُخرج الاستفهام من معناه الأصلي أو الحقيقي. ويعتقد البعض أنّ اختلاف الأغراض الفرعية للاستفهام مع أغراض تجاهل العارف والنقاط المشتركة بينهما تنقض هذا التصوّر. ففي الوقت الذي اعتُبر فيه إيجاد الأنس والأُلفة في كتاب جواهر البلاغة وكثير من الكتب البلاغية ضمن الأغراض الفرعية للاستفهام، نرى المراغي في كتاب علوم البلاغة يعتبره صمن تجاهل العارف[١].

كما أنّ ابن أبي الإصبع المصري يعتبره ضمن تجاهل العارف[٢]. وعليه فإنّ اشتراك بعض أو كلّ أغراضهما دليل على أنّ تجاهل العارف هو نفسه الاستفهام للوصول إلى الغرض الفرعي.

أغراض الباري من الأسئلة القرآنية

إنّه ليُشاهد في القرآن الكريم أسئلة متعددة. وإنّ مما يمكن القطع به هو أنّ ذات الباري تعالى مُنَزّهة عن أن يكون الغرض من تلك الأسئلة هو طلب العلم أو الفهم. إذن من المسلّم به أنّ تلك الأسئلة لها أغراض غير طلب العلم. في هذا القسم من البحث سنتناول أهم أغراض تجاهل العارف في كلام الباري تعالى بالدراسة والتحليل ذاكرين شواهدها.

الاستبعاد

أي استبعاد ما لا يمكن أن يقوم به أفراد أو جماعة ما. وقد تمّ بيان هذا الغرض من قبل الباري تعالى في بعض الآيات في إطار استفهامي، نحو: ﴿أنّى لهم الذكرى وقد جاءَهم رسولٌ مبينٌ﴾[٣].

---

[١]- أحمد مصطفى المراغي، *علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع*، ص ٣٤٦.

[٢]- ابن أبي الإصبع المصري، *بديع القرآن*، ص١٥١.

[٣]- الدخان:١٣.

أي كيف يستطيعون أن يتذكروا ويعترفوا بالحقّ بينما جاء بذلك رسول معروف ومع ذلك لا يؤمنون به؟ هذه الآية تُعلم الرسول الكريم (ص) أنهم لا يصدقون في وعودهم[١].

إنّ الباري تعالى، عن طريق الاستفهام، يبين أنّ إيمان الكافرين هو أمر مستبعد ويُطلع النبيّ (ص) عن طريق هذا الاستفهام ألاّ يصدّق قولهم لأنهم لم يؤمنوا برسول رسالته كانت واضحة، وعليه فإنّ إيمانهم الآن بعيد أيضاً.

إيجاد الأنس والأُلفة

إذا أراد المتكلم أن يقرّب المخاطب إليه أكثر ليوجد في قلبه اطمئناناً أكثر ويزيده أُنساً وألفة إليه فإنّه يحتاج إلى مبرّر لكي يبدأ الكلام معه. وإنّ أفضل طريقة لذلك الغرض قد تكون سؤالاً لا يخفى جوابه لا عن المتكلم ولا عن المخاطب كليهما، لكنّ المخاطب يعلم أنّ قصد المتكلم من سؤاله هذا هو إيجاد جوّ من الصداقة والمحبة، ولذلك يجيب بالإيجاب وأحياناً يطيل الجواب ليتلذّذ أكثر، نحو قوله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾[٢].

ومن الطبيعي أن يكون الأنس والألفة اللذين أوجدهما الباري تعالى لدى موسى (ع) مقدمةً للإشارة إلى حدوث أمر عظيم كتحوّل العصا إلى أفعى الذي حدث بعد ذلك. وخلاصة الأمر أن إيجاد الأنس مقدمة لبيان أمر مهم وعظيم.

الأمر

إنّ الأمر الذي يَصدر في إطار الاستفهام هو أكثر تأثيراً في المخاطب من الأمر الواقعي لأنّ صيغ الأمر تُستعمل لطلب إنجاز أمر ما، لكّن الاستفهام الذي يأتي بقصد الأمر يحمل، إضافة إلى الأمر، نوعاً من التهديد والوعيد في داخله ضمناً، نحو قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾[٣].

---

[١]- محمد حسين الطباطبائي، *تفسير الميزان*، ج١٨، ص٢٠٩.

[٢]- طه:١٧.

[٣]- المائدة:٩١.

إنّ الباري تعالى يطرح أمره في الآية السابقة في إطار جملة استفهامية ليكون أكثر تأثيراً في نفوس المخاطبين وليوبّخهم كي يدفعهم إلى ترك الأعمال المحرّمة من شرب الخمر والقمار واتباع الشيطان.

الإنكار

إنّ إنكار عمل ما يعني اعتباره أمراً سيئاً ومرفوضاً. وقد استفاد الباري تعالى في كتابه العزيز من أسلوب الاستفهام كثيراً ليبيّن سوء عمل ما بشكل مضاعف ولينهى عباده عن عمل السوء.ويتضمّن الإنكار،أيضاً،أغراضاً أخرى كالنهي، والتوبيخ، والإثبات، والتقرير.

ولكنّ الأمر الذي يُطرح حول الإنكار هو خلط أمر بين النفي والإنكار. وإنّ معرفة حدود ما بينهما يساعدنا كثيراً في معرفتهما بشكل صحيح.

وحول تعريف الإنكار، يقول العكاوي: "استفهام الإنكار يدلّ اسمه على معنى النفي وما بعده منفيّ لكونه مصحوباً بإلاّ"[١].

وقد حدّد التعريف أعلاه الإنكار بالنفي. لكننا نرى أنه، رغم أنّه من الممكن أن يتضمّن الإنكار النفي كذلك، لكن ليس كلّ نفي إنكاراً، كما في قوله تعالى أدناه الذي تم اعتباره إنكاراً في أكثر من تفسير، بينما، لوتأملنا قليلاً لرأينا أنّه لا يُفهم منه إلاّ النفي.

قال تعالى: ﴿أفمن يعلمُ أنّما أُنزل إليك من ربّك الحقُّ كمن هو أعمى إنّما يتذكّرُ أولو الألباب﴾[٢].

وقد جاء في تفسير مجمع البيان وتفسير جوامع الجامع وتفسير الميزان أنّ الغرض من الاستفهام في الآية أعلاه هو الإنكار، بينما تنفي الآية مسألة التساوي بين الإنسان العالم الواعي والإنسان الجاهل فقط ولا تبيّن سوء عمل ما أبداً. إنّ علامة الاستفهام

---

[١]- إنعام فوال العكاوي، معجم *المفصل في علوم البلاغة*، ص١٢٥.

[٢]- الرعد:١٩.

لغرض النفي هي أنّ جوابه المنفي معلوم مسبقاً ويجيبه المخاطب بالنفي لا شعورياً، بينما يختلف الأمر في الاستفهام لغرض الإنكار.

ولكنّ الآية التالية يمكن اعتبارها من الآيات التي جاء الاستفهام فيها للإنكار، قال تعالى: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾[١].

قال الزمخشري في شرح هذه الآية ما نصّه :«إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادته على أنّ مبنى قولهم على الجهل المفرط»[٢].

إنّ الباري تعالى في الآية السابقة يرفض عمل الكافرين في الافتراء عليه تعالى ويعتبره سيئاً وذلك عن طريق الاستفهام. وقد كان بيان ذلك الغرض عن طريق الجملة الخبرية ممكناً أيضاً، ولكنه تعالى أراد أن يبيّن سوء عمل الكافرين أضعافاً مضاعفة، من جهة، وأن ينهى عن هذا العمل القبيح من جهة أخرى فلذلك أورد غرضه في إطار الاستفهام.

وخلاصة البحث أنّ معنى النفي يمكن فهمه من الاستفهام لغرض النفي، كقوله تعالى: ﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾[٣]، أي لا يستوى الأعمى والبصير. ولكنّ المعنى في الاستفهام الإنكاري يُفهم منه نوع من التوبيخ والعتاب، كقوله تعالى: ﴿أتعبدون من دون الله... ﴾[٤]، أي لماذا تعبدون...؟

التحضيض

وهو ضد العرض، أي الطلب بإلحاح بواسطة أشهر أدوات العرض «هلاّ». ولكّن «ألا» تُستعمل أيضاً في هذا المعنى[٥].

---

[١]- الأعراف: ٢٨.

[٢]- محمود الزمخشري، *الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل*، ص٩٩.

[٣]- الأنعام: ٥٠.

[٤]- المائدة: ٧٦.

[٥]- محمود بن عبد الرحيم الصافي، *الجدول في إعراب القرآن الكريم*،ص ٢٩٣.

كقوله تعالى: ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أوّل مرة﴾[١]، حيث يسوق المسلمين بنبرة حادة نحو قتال الكفّار[٢].

التنبيه على الباطل

تتم الاستفادة من أسلوب الاستفهام أحياناً للدلالة على عدم جدوى عمل ما، كقوله تعالى: ﴿أفأنت تُسمع الصُمّ أو تهدي العُميَ ومن كانَ في ضلالٍ مبينٍ﴾[٣].

فعن طريق الاستفهام ينبّه الباري تعالى بنيّه الكريم على عدم جدوى جهوده لهداية عُماة القلوب المأيوس من هداهم وبطلان ما يبذله لهداية الكافرين؛ ينبّهه عليه سبحانه وتعالى ليصرف نظره عن القيام بأعمال لا طائل تحتها.

التنبيه على ضلال الطريق

وهو استفهام يُفهم المخاطب أنّ الأسلوب والطريق الذي تمّ اتباعه هو غير صحيح وهو نوع من تجاهل العارف كقوله تعالى: ﴿فأين تذهبون﴾[٤].

والباري تعالى لا يبقى في انتظار جواب المخاطبين، بل يريد فقط أن ينبّهم على أنّ الطريق الذي يسيرون فيه ليس طريقاً مستقيماً، بل طريق ضلالة.

التشويق

وهو إشارة للمخاطب من قبل المتكلم بطريق التشجيع والتشويق والترغيب الذي هو من أكثر الطرق تأثيراً في المخاطب بلسان ليّن ومناسب، فإذا تمّ أداء هذا الأمر في إطار جملة استفهامية فإنّ تأثيره يكون مضاعفاً. نحو قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفُهُ له أضعافاً كثيرة﴾[٥].

---

[١] –التوبة:١٣.

[٢]– محمد حسين الطباطبائي، *تفسير الميزان*، ٩: ٢١٣.

[٣] –الزخرف:٤٠.

[٤] –التكوير:٢٦.

[٥]– البقرة: ٢٤٥.

وبينما ذكر صاحب مجمع البيان أنّ الغرض من الاستفهام في الآية أعلاه هو الأمر[١]، ذكر صاحب تفسير الميزان أنّ «سياق الأمر لا يخلو من كسب التكليف ولكنّ سياق الاستفهام هو الدعوة والتشويق وبالتالي يستريح ذهن المخاطب من تحمل ثقل الأمر فينشط»[٢].

فالباري تعالى يطرح تشويق وترغيب عباده لمساعدة الأضعف منهم في إطار استفهاميّ رائع، ولو أنّ هذا العمل الصالح قد تمّ بيانه في إطار جملة أمرية لكان تأثيره أقلّ بكثير.

التعجّب

يُستنبط، بعض الأحيان، مفهوم التعجّب من جملة استفهامية في الظاهر، نحو قوله تعالى: ﴿كيف تَكفرون باللهِ وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾[٣].

كلمة "كيف" في الآية هي مثل الهمزة لإظهار التعجب[٤].

لأنّه رغم أنّ الباري تعالى على كلّ شيء قدير بما في ذلك إحياء الموتى فإنّ الكفر به ممّا يثير التعجب. والاستفهام لغرض التعجب قد يتضمّن أغراضاً أخرى أحياناً لا يمكن استنباطها في الجمل العادية. فالآية أعلاه تتضمن التوبيخ والتحضيض، إضافة للتعجب.

التعظيم

إذا كانت الجمل الخبرية قاصرة عن بيان عظمة شخص أو شيء ما فلابدّ من اللجوء إلى الجمل الاستفهامية التي تحمل نوعاً من الإبهام وعدم توضيح حدود العظمة، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذا الذي يشفعُ عنده إلاّ بإذنه﴾[٥].

---

[١]- الفضل بن الحسن الطبرسي، *تفسير جوامع الجامع*، ٣: ٧٢.

[٢]- الطباطبائي، محمد حسين، *تفسير الميزان*، ٢: ٤٣٢.

[٣]- البقرة: ٢٨.

[٤]- الفضل بن الحسن الطبرسي، *تفسير جوامع الجامع*، ١: ١١١.

[٥]- البقرة: ٢٥٥.

فإنّ مقام الشفاعة هو من العظمة بمكان بحيث لا يصل إليه أحد بغير إذنه تعالى. وقد ذكر تفسير الكشاف أنّ الغرض من الاستفهام في الآية هو بيان عظمة الباري تعالى[١].

التفخيم

وهو بيان عظمة وفخامة شيء أو أمر ما، وواحد من طرقه هو أسلوب الاستفهام. والتفخيّم الذي يصاحبه نوع من التخويف يسمّى التهويل، نحو قوله تعالى: ﴿القارعةُ، ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾[٢].

قال تعالى: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾[٣]، فليلة القدر هي إحدى الليالي التي أراد الباري تعالى أن يبيّن عظمتها وفخامتها باستعمال أسلوب الاستفهام.

يؤيد ذلك ما ورد في تفسير جوامع الجامع، إذ يعتبر أنّ غرض الاستفهام في الآية هو بيان عظمة وشرف ليلة القدر بالنسبة لبقية الليالي[٤].

ويذكر تفسير مجمع البيان أنّ غرض الباري من الاستفهام في هذه الآية هو ترغيب وتحريض النبي (ص) على العبادة في هذه الليلة العظيمة، أي ليلة القدر[٥].

التقرير

التقرير يعني إقرار المخاطب بعمل قد تمّ. ولذلك فإنّ المتكلّم يطرح سؤالاً كي يحصل على إقرار المخاطب لعلّ المخاطب يقرّ بعمله أو عمل الآخرين. وجاء في أنوار البلاغة أنّ معناه: «حمل المخاطب ودفعه إلى الإقرار بالمسؤول عنه»[٦].

---

[١]- محمود الزمخشري، *الكشاف عن حقائق غوامض التنْزيل*، ١: ٣٠٠.

[٢]- القارعة:١-٣.

[٣]- القدر:٢.

[٤]- الفضل بن الحسن الطبرسي، *جوامع الجامع*،٦: ٧٩.

[٥]- الطبرسي، *مجمع البيان*، ٧: ١٩٧.

[٦]- محمد هادي بن محمد صالح المازندراني، *أنوار البلاغة*، ص٧٤.

إنّ الآيات التي جاءت في القرآن لهذا الغرض قسمان: قسم على لسان الباري وآخر على لسان الكافرين أو عبدة الأصنام. قال تعالى: ﴿ألم نشرحْ لك صدرك﴾[١].

فغرض الباري تعالى من الاستفهام في هذه الآية هو إقرار النبي (ص)، أي تذكيره بالنعم التي أنعمها عليه وتمهيد الأرضية اللازمة لصدور حكم العبادة لله تعالى.

إنّ ما تمّ تناوله من أغراض لحدّ الآن هو ما يندرج تحت عنوان **تجاهل العارف** في الكتب البلاغية. ولكنّ الأغراض التي سوف نتناولها لاحقاً قد جاءت غالباً في الكتب البلاغية تحت عنوان **الأغراض الفرعية للاستفهام**. ولكن، وبما أنّ تجاهل العارف هو الاستفهام بأغراض فرعية، لذا نرى أنّه لا يوجد فرق بين تجاهل العارف والأغراض الفرعية للاستفهام. إذن فالأغراض التي ذُكرت تحت عنوان الأغراض الفرعية للاستفهام هي أغراض تجاهل العارف نفسها.

التوبيخ

التوبيخ تفعيل من وبّخ بمعنى عاتب بشدّة، وهو من الأغراض الفرعية للاستفهام التي كثر مجيئها في القرآن الكريم. وهذا الغرض هو لإثارة المخاطب ضدّ عمل سيّء قام به، من جهة، وتنبيهه إلى سوء ما قام به من جهة أخرى. ويتضمّن هذا الغرض أغراضاً أخرى في طيّاته كالأمر والنهي. قال تعالى: ﴿وناداهما ربُّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرةِ وأقُلْ لكما إنّ الشيطانَ عدوٌّ مبينٌ﴾[٢].

قال الزمخشري حول شرح هذه الآية ما نصّه: "عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ، حيث لم يتحذّرا ما حذّرهما الله من عدوّه الشيطان"[٣].

وهذه الآية، كما يُفهم من شرحها، هي عتاب من قبل الله تعالى لآدم وحوّاء (ع) وتوبيخ لهما بسبب عدم اتباعهما أمراً من الأوامر الإلهية واتّباعهما الشيطان في ذلك الأمر. ويحمل هذا التوبيخ في طياته نهياً عن اتباع الشيطان وأمراً باتباع الأوامر الإلهية أيضاً.

---

[١]- الانشراح:١.

[٢]- الأعراف: ٢٢.

[٣]- محمود الزمخشري، *الكشاف عن حقائق غوامض التنْزيل*، ٢: ٩٦.

التهويل

إنّ تخويف المخاطب من أمر ما هو دليل على أهمية ذلك الأمر. كما أنّ بيان ذلك الأمر في إطار جملة استفهامية هو ممّا يضاعف أهميته وعظمته في نفس المخاطب. نحو قوله تعالى: ﴿ما القارعة، وما أدراك ما القارعة﴾[١].

فالباري تعالى في الآية أعلاه، إضافة إلى بيان الرهبة والخوف من يوم القيامة، يبيّن أيضاً عظمة ذلك اليوم وينبّه المخاطب إلى ذلك.

الاعتبار

من أجل نهي الناس عن الأعمال السيئة والأمر بعبادته، يحذّرهم تعالى من عاقبة من كان قبلهم ممّن أُهلكوا بسبب عصيانهم ليعتبروا بمصيرهم ويُقلعوا عن المعاصي. وقد بيّن الباري تعالى تلك الأمور في إطار استفهامي ليعظم نفوذها إلى داخل أذهان المخاطبين وأرواحهم، نحو قوله تعالى: ﴿ألم يَروا كم أهلكنا مِن قبلهم...﴾[٢].

وقد بين صاحب مجمع البيان الغرض من الاستفهام كما يلي: "ثمّ يذكّرهم الباري تعالى بمصير الماضين ليعتبروا به"[٣]. ويُعتبر الاعتبار تهديداً للعاصين والمتمردين على الأوامر الإلهية كذلك.

العرض

العرض يعنى الطلب برفق ولين. وغالباً ما تبدأ تلك الجمل بـــ "ألا"، حيث يستعمل الباري تعالى هذا الأسلوب من أجل إثارة عباده للقيام بعمل صالح. نحو قوله تعالى: ﴿ألا تحبّون أن يغفرالله لكم﴾[٤].

---

[١]- القارعة: ٢-٣.

[٢]- الأنعام:٦.

[٣]- الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع *البيان*، ٨: ١٥.

[٤]- النور: ٢٢.

فقد استفاد الباري تعالى من هذا النوع من الاستفهام لإثارة المقتدرين مادياً كي يساعدوا الفقراء، حيث يتجلّى فيه الرفق واللين بشكل واضح. ويذكر العلامة الطباطبائي في الميزان[١] أنّ غرض الاستفهام في الآية هو الإثارة.

النفي

المقصود بالنفي هنا هو أنّ جواب السؤال المطروح في ذهن المخاطب هو النفي. وهو نفي بديهيّ، إذن فغرض الاستفهام هنا هو تأكيد ذلك النفي في ذهن المخاطب. وتكثر مثل هذه الأسئلة في القرآن الكريم. ومن الممكن أن تكون هناك أغراض أخرى ثانوي تُستنبط من الاستفهام كاتباع الأوامر الإلهية وكسب رضاه، كما في قوله تعالى: ﴿أفمن اتبع رضوان اللهِ كمن باءَ بسخطٍ من اللهِ ومأواهُ جهنّم وبئسَ المصيرُ﴾[٢].

فالغرض من الاستفهام في الآية هو نفي التساوي بين من يسير في مسير رضاء الله تعالى ومن شمله الغضب الإلهي فكان بذلك من أصحاب النار. إنّ مأوى من يسير على رضوان الله تعالى هو الجنّة ومصير من غضب الله عله هو النار، والفرق بين الجنّة والنار معلوم وواضح جداً. ويحمل الاستفهام ضمناً أمراً بطاعته تعالى ونهياً عن معصيته.

النهي

يستعمل القرآن الكريم، أحيانا، الجمل الاستفهامية لإفادة نهي العباد عن الأعمال السيئة. والنهي الذي يستبطنه الأسلوب الاستفهامي هو النهي غير المباشر الذي يفيده سياق الكلام. نحو قوله تعالى: ﴿أتخشَونهم، فاللهُ أحقُّ أن تخشَوهُ إن كنتم مؤمنين﴾.(التوبة: ١٣)

فالباري تعالى جعل تركيب كلامه في إطار الاستفهام لينهى عباده عن الخوف غير الإلهي لأنّه تعالى هو القادر المطلق في الدنيا واللآخرة والمؤمنون الصادقون يعرفون هذه الحقيقة، فيسأل تعالى في البداية: هل تخافونهم، أي هل تخافون من الكفّار. لا تخافوهم

---

[١]- ١٥: ١٣٤.

[٢] -آل عمران: ١٦٢.

لأنّ الذي يستحق أن تخافوه في الحقيقة والواقع هوالله القادر المتعال فلا تعصوه وأطيعوا أمره في قتال الكفّار.

الوعيد

يذكر القرأن الكريم المصير الأسود لأفراد أو أقوام ماضين بسبب أعمالهم الطالحة وذلك لغرض منع بقية العباد أو المخاطبين من أن يكرروا تلك الأعمال. ولزيادة التأثير في نفوسهم يستفيد من الأسلوب الاستفهاميّ للتخويف ولتهديدهم بأنّ مصيرهم سيكون مشابهاً لما حلّ بأولئك إن لم يتعظوا بما حلّ بهم. والتهديد أبلغ في التأثير على قلوب المخاطبين وأذهانهم. نحو قوله تعالى﴿ألم نهلكِ الأوّلين﴾[١].

فالغرض من الاستفهام هو تهديد المكذبين بيوم القيامة. فكما أهلكنا الماضين بسبب عدم إيمانهم بيوم القيامة واقترافهم المعاصي كذلك من الأفضل لكم أنتم أن تؤمنوا بيوم القيامة حتى لا تلاقوا المصير الذي لاقوه.

نتائج البحث

إذ تأمّل البحث في عدد من الآيات الاستفهامية فخلص إلى النتائج التالية:

إنّ أغراض الأسئلة القرآنية التي جاءت على لسان الباري تعالى هي ١٩ غرضاً. ومن بين تلك الأسئلة أسئلة كثيرة غرضها توبيخ المخاطب. طبعاً، أغلب مخاطبي تلك الأسئلة هم الكفار الذين يوبخّهم القرآن ويلومهم بسبب عصيانهم أو كفرانهم النعم الإلهية. وقد استفاد القرآن من أسلوب الاستفهام ليكون التأثير مضاعفاً.

ومن بين الأسئلة القرآنية أسئلة طُرحت لغرض الإنكار وبعضها يبيّن غرض النفي. ولم يلتفت بعض المفسرين إلى الفرق بين الغرضين مع أنّ حدود كلا الغرضين واضحة محددة. فمن أسئلة النفي يظهر معنى النفي ومن أسئلة الإنكار يظهر معنى توبيخ ولوم المخاطب بسبب سوء العمل.

---

[١] –المرسلات: ١٦.

ومن الجدير بالذكر أنّ السؤال الذي يبدو أنّ غرضه واحد تُفهم منه أغراض أخرى أيضاً. وهذه المسألة هي إحدى جوانب الإعجاز القرآني، حيث يبيّن الباري تعالى عدة أغراض بواسطة جملة واحدة ويعتمد الأمر على مدى فهم المخاطب ليدرك ذلك.

إنّ هذا البحث يدعو القراء الكرام إلى التأمل والتدبّر في الآيات القرآنية ويمهّد الأرضية لبحث آخر حول الأسئلة القرآنية التي جاءت على لسان غير الله وتضمنت أغراضاً فرعية. نأمل أن يفتح هذا البحث آفاقاً علمية ومعنوية جديدة أمام المحققين.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- اسفنديارپور، هوشمند، *عروسان سخن (عرائس الكلام)*، الطبعة الثالثة، مطبعة رامين، طهران، ١٣٨٤ش.

٢- ابن المعتز، أبي عباس عبدالله، *البديع*، تقديم وشرح وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، د. ت وط.

٣- الزمخشري، محمود، *الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل*، الطبعة الثالثة، دار الكتب العربي، بيروت، ١٤٠٧ه.

٤- السكاكي، يعقوب بن يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، *مفتاح العلوم*، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت وط.

٥- الصافي، محمود بن عبد الرحيم، *الجدول في إعراب القرآن الكريم*، الطبعة الرابعة، دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، دمشق، ١٤١٨ه.

٦- الطباطبائي، محمد حسين، *تفسير الميزان*، ترجمة سيد محمد باقر الموسوي الهمداني، الطبعة الخامسة، مكتب المنشورات الإسلامية في رابطة مدرسي الحوزة العلمية في قم، قم، ١٣٧٤ش.

٧- الطبرسي، الفضل بن الحسن، *تفسير جوامع الجامع*، الطبعة الثالثة، ترجمة مؤسسة البحوث الإسلامية للروضة الرضوية المقدسة، مشهد، ١٣٧٧ ش.

٨- ـــــــــــــــــ. *مجمع البيان في تفسير القرآن*، مع مقدمة بقلم محمد جواد البلاغي، الطبعة الثالثة، دار الكتب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٩- العسكري، أبو هلال حسن بن عبد الله بن سهل، *معيار البلاغة (مقدمة في مباحث علوم البلاغة)*، ترجمة محمد جواد نصيري، مؤسسه انتشارات و چاپ دانشگاه تهران، تهران،١٣٧٢ش.

١٠- العكاوي، إنعام فوال، معجم *المفصل في علوم البلاغة*، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.- ١٩٩٦م.

١١- المازندراني، محمد هادي بن محمد صالح. أنوار البلاغة، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، طهران، بهار ١٣٧٦ش.

١٢- المراغي، أحمد مصطفى، *علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع*، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت وط.

١٣- المصري، ابن أبي الإصبع، *بديع القرآن*، ترجمة سيد علي ميرلوحي، الطبعة الأولى، انتشارات آستان قدس رضوي، مشهد، ١٣٦٨ ش.

١٤- مطلوب، أحمد، معجم *المصطلحات البلاغيه وتطورها*، لبنان، بيروت، د. ت وط.

١٥- الهاشمي، أحمد، *جواهر البلاغه في المعاني والبيان والبديع*، الطبعة الأولى، ضبط وتدقيق وتوثيق د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٩م.

١٦- ـــــــــــ. *جواهر البلاغه*، ترجمة محمود خورسندي وحميد مسجد سرايي، الطبعة الأولى، حقوق إسلامي، قم، ١٣٨٤ هـ.ش.